الباب الثاني
وسائل الاتصال المطبوعة التقليدية

يتضمن هذا الباب فصلين:

الفصل الثالث: تطور الكتاب التقليدي.

الفصل الرابع: تطور الصحافة التقليدية.

الفصل الثالث

تطور الكتاب التقليدي[1]

وأهميته ومميزاته وسلبياته

يعتبر الكتاب التقليدي أول وسيلة اتصالية مكتوبة أو مقروءة؛ حيث خرج إلى الوجود منذ خمسة قرون قبل اختراع الورق والطباعة بزمن طويل .. ولقد أصبح الكتاب في العصر الحاضر ضرورة كالماء والهواء والطعام، لا يمكن الاستغناء عنه؛ فهو وسيلة طلب المعرفة، وزيادة الخبرة، وتنمية القابليات الفكرية، ووسيلة الاطلاع على الجديد ومواكبته.

وتعرف موسوعة (لاروس) الفرنسية الكتاب بأنه: "مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة في مجلد واحد أيًّا كان شكل التجليد"[2]. وترى دائرة المعارف البريطانية أن أبرز سمة للكتاب هي أنه قصد به "أن يكون وسيلة اتصال. وقد كان هذا الغرض من الأشكال المختلفة التي اتخذها الكتاب، مثل ألواح الطين البابلية، ولفائف البردي المصرية، ثم الكتاب في العصور الوسطى من الرق، ثم الورق المطبوع المعاصر، والميكروفيلم، وغير ذلك". والسمة الثانية للكتاب هي أنه "يستخدم الكتابة أو نظامًا آخر من الرموز المرتبة، مثل الصور لإيصال المعنى". والسمة الثالثة هي نشر الكتاب لتوزيعه .. وعلى ذلك، فالكتاب - كما ترى

---

(1) يرجى ضرورة مراجعة الفصلين الثامن والتاسع من الباب الرابع من هذا الكتاب؛ لصلتهما الوثيقة بهذا الفصل.

(2) محمد سيد محمد: صناعة الكتاب ونشره (القاهرة - دار المعارف - الطبعة الأولى 1404هـ - 1983م)، ص13 و59 نقلا عن:

Grand larouse Encyclopedique / larouse Paris 1962 Article (Ie liverero p. 799.

دائرة المعارف البريطانية – هو رسالة على قدر كبير من الطول والإسهاب، كتبت بخط اليد، أو طبعت، وقصد بها الانتشار والتوزيع، وسجلت على مواد خفيفة، لكنها قابلة للبقاء والاستمرار، بدرجة توفر إمكانات الحمل والنقل بسهولة نسبية، والغرض الرئيس من الكتاب أن يحمل رسالة بين الناس، تتوقف على سمتين، هما: القابلية للنقل، والاستمرارية أو الدوام، والكتاب بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان؛ ليعلن وينشر، ويحفظ، وينقل المعرفة[1].

والقول بأن الكتاب وسيلة اتصال نتيجة منطقية لتعريف الكتاب، ونتيجة منطقية لتاريخ الكتاب في الوقت نفسه، ولحاضره ومستقبله؛ فالكتاب بصفة عامة وسيلة اتصال، ينطبق عليه ما ينطبق على مثيله من الوسائل. وكلما كان الكتاب في الثقافة العامة وغير متخصص، كلما خاطب جمهورًا واسعًا .. وكلما أوغل الكتاب في التخصص، كلما قل جمهوره.

وعلى قدر التخصص يقاس جمهور الكتاب، وفوق ذلك يمكن القول إن الكتاب يجمع بين فضائل وسيلة الاتصال الجماهيرى – بحكم الأعداد المطبوعة منه – وبين فضائل الاتصال المباشر؛ لأن القارئ لابد وأن يخلو للكتاب، وأن يتهيأ للقراءة، والكتاب في دائرة الاتصال الحضاري يحظى بموقع فريد، وتقف بعض الكتب كأنها علامات بارزة في نقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل، ومن حضارة إلى أخرى. يقول الدكتور سيد أبو النجا: إن الكتاب سلعة كسائر السلع، لا يأخذ سبيله للأسواق باعتباره رسالة وحسب، وإنما يشق طريقه باعتباره رسالة، وبمقوماته الصناعية، وبسعره المنافس، وتسويقه الناجح، وتمويله المدروس، وبالإعلان عنه في جميع نطاق الطلب عليه .. والكتاب الذي لا يتمكن من بيع نسخه، لا يتمكن – بطبيعة الحال – من إبلاغ رسالته، ويعتبر بذلك وليمة أعرض عنها الطاعمون.

كذلك فإن القول بأن الكتاب عبارة عن أوراق مطبوعة، ومجموعة في مجلد، ينطبق على الشكل الذي وصل إليه الكتاب في وقتنا الحاضر، إلا أنه يمكن القول أيضا إن الكتاب لم يكن دائمًا على هذا النحو، وقد لا يظل كذلك على الدوام؛ "حيث إن أشكالا أخرى سوف تنافسه

(1) المرجع السابق نفسه، ص13، 14، 60 نقلا عن:
Encyclopedia Britanica – volume 3–london 1966 Article (Book) p.919.

وهو في شكله الحالي وربما قضت عليه". فمند نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ تسجيل الكتب على الميكروفيلم أو الميكروفيش، أو الأشرطة الممغنطة، وإن كان هذا التحول هدفه الحفظ وليس القراءة. وهي مرحلة تأتي - يبطبيعة الحال - بعد صدور الكتاب، أو هي مرحلة نتيجة لنشر الكتاب. وقد ذهب بعض المدرسين في مصر مثلا إلى تسجيل دروسهم على أشرطة "كاسيت"، وبيعها إلى الطلبة بدلا من الكتب .. وقد نجحت هذه التجربة على وجه الخصوص في دروس اللغات الأجنبية[1].

ولقد توصلت تكنولوجيا الاتصال إلى تصميم شرائط لجهاز (فيديو دسك) جديد، تشبه أسطوانة (الفونوغراف)، تسجل عليها صور صفحات الكتب، وتعمل بأشعة الليزر. وقد صممت على أساس استيعابها لصفحات تبلغ 55 ألف صفحة، ويستطيع القارئ أن يقلب الصفحات بالضغط على أزرار، وهذا مما يناسب دوائر المعارف، ويسهل عمل الباحثين. وتوفر هذه الكتب كثيرًا من الحيز الذي تشغله والثمن الذي يدفعه مشتريها بالقياس إلى الكتب الحاضرة.

إلى جانب وضوحها وسهولة قراءة محتوياتها بواسطة منظار خاص بها، فالثمن الذي يدفع لشراء موسوعة تحتوي على عشرة مجلدات، تبلغ عدد صفحاتها ستة آلاف صفحة، لا يزيد عن سبعة دولارات، يضاف إلى ذلك ثلاثة دولارات ثمن المنظار .. وتلك هي أسعار الوقت الحاضر، وأغلب الظن أنها ستنخفض كثيرًا لدى انتشارها في المستقبل. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الكتب مجهزة بكمبيوتر يمكن القارئ من العثور على الموضوع الذي يريد، وفتح الكتاب عند الصفحة التي يريدها بسهولة[2].

تاريخ الكتاب:

ومهما يكن شكل الكتاب باعتباره الأداة التي ابتكرها الإنسان، لتكون مساعدا لفكره، فإن أحدًا لا يستطيع أن يحدد بالضبط التاريخ الذي ظهر فيه الكتاب لأول مرة، ويقصد هنا

(1) خليل صابات: وسائل الاتصال - نشأتها وتطورها (القاهرة - الأنجلو المصرية - الطبعة الثالثة 1982)، ص11؛ وكذلك المرجع السابق، ص54.

(2) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص55 و56.

الكتاب بمدلوله الحديث، أي مجموع الصفحات المخطوطة أو المطبوعة، موصولة أو مثبتة، أو خيط بعضها في بعض، فأصبحت وحدة قائمة بذاتها .. ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقولون إن الكتاب نشأ في العصور القديمة مع نشأة اللغة من ناحية، ومع نشأة الفن من ناحية أخرى، وأن ما رسمه الإنسان من صور على الفخار أو على جدران الكهوف تمثل كتب الصور، وأن القصص المصورة على الخشب أو جلود البقر، كانت تحكي حكاية أو أسطورة. ثم كان الكتاب الشفاهي؛ حيث كانت المشافهة هي الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار، وبعد اختراع الكتاب، بدأ الكتاب المدون منسوخًا. ويرى كثير من العلماء أن اختراع الكتابة[1] أول عطاء حضاري في التاريخ، وأن اهتداء الإنسان إلى الكتابة، زوده بخزانة دائمة، يحفظ فيها كل ما عاناه من تجارب، وما وصل إليه من نتائج، في دقة لا تستطيعها الذاكرة البشرية المحدودة، وبذلك مكنت الكتابة الأجيال المتعاقبة من البشرية من الاستفادة من هذه الخزانة، وظل الكتاب كذلك حتى اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، وغالبًا ما يتحدث المؤرخون عن المادة التي سجل عليها الكتاب من حجر، أو صلصال، أو فخار، ثم جلود وبرديات وحرير، ثم ورق، وهم يتحدثون عن تاريخ الكتاب في الحضارات القديمة، والعصور الوسطى، ثم العصر الحديث[2].

---

(1) يحدثنا التاريخ أن اختراع الكتابة في تاريخ البشرية كان في مصر القديمة، وفي الحضارات السومرية بالعراق، وعند الكنعانيين في فلسطين، ويرى العلماء أن ذلك كان في مصر القديمة مع بدء التاريخ المصري، أي قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولم يهتد المصري إلى نظام واحد للكتابة، بل طور ما وصل إليه إلى ثلاثة أنظمة، هي: الهيروغليفية، والديموطيقية، والهيراطيقية، غير أنها كانت تصويرية في أساسها. وجاءت الخطوة الثانية عندما اهتدى الإنسان الكنعاني من سكان فلسطين – في ظن العلماء – إلى نظام الألف باء، التي توفر الوقت والجهد في التعلم والممارسة، وتقدم علامات قليلة العدد (32 علامة)، وأهدى الكنعانيون هذه الألف باء إلى الإغريق، الذين أهدوها إلى أوربا والعالم المتحضر.

(2) دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة الطبعة الثانية 1972)، ص1440؛ وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص11؛ وكذلك صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق ص27، 28، 330.

ويتحدث الدكتور خليل صابات عن الكتاب في العصور القديمة، فيقول[1]: يرجح العلماء أن الأقدمين صنعوا الكتاب من الخشب أو من لحاء الأشجار، وقد استخدم المصريون القدماء خشب الأبانوس في حوالي الثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ويقال إن الكتب الصينية الأولى صنعت من هذه المادة أيضًا. واستخدم الإنسان كذلك الحجر منذ حوالي خمسة آلاف سنة، فنقش المصريون بالهيروغليفية عليه. كما استعمل الصلصال والطين والعظم والبرونز، وفضل الساميون والإغريق الكتابة على الأصداف. وفي الحضارات القديمة، تتميز حضارة بابل وآشور – أي حضارة ما بين النهرين في العراق – باللوحات الفخارية؛ حيث كانت تتم الكتابة بالمسمار على لوح الطين، ويحرق، فتصبح الكتابة غائرة فيه، ويصبح اللوح أخف وزنًا وأقوى تحملا[2].

ومن الثابت تاريخيًّا أن قدماء المصريين كانوا يكتبون على ورق البردي(•) (Papyrus) ، ومن الكلمة جاءت تسمية الورق باللغة الإنجليزية (Paper)، وبالفرنسية (Papier)، وظل نبات البردي الدعامة الأساسية للكتابة في مصر منذ اكتشافه في السنة الألف الثالثة قبل الميلاد. وعرفت بلاد الإغريق هذا الورق منذ القرن السابع قبل الميلاد، وعرفته روما ابتداء

(1) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص11.

(2) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص357.

(•) البردي نبات كان كثير الانتشار في مصر القديمة، وينمو بكثرة على جانبي الترع، وفي المستنقعات التي يخلفها الفيضان، ويمتاز هذا النبات بطول ساقه التي تصل إلى ستة أمتار. ولم يكن استخدام الفراعنة لهذا النبات قاصرًا على صناعة أوراق البردي، بل صنعوا منه القوارب والحبال، واستخدموه في البناء. وكان صناع ورق البردي يقومون بشق النبات إلى شرائح مستقيمة، يضعونها بجوار بعضها في وضع أفقي، ثم يضعون فوقها مثلها في وضع رأسي، وبالمادة اللاصقة وبالضغط الشديد على الشريحتين؛ الأفقية والرأسية يلتصقان بشدة، ثم يوضع الفرخ كله في الشمس؛ ليجف ويزداد تماسكًا، ويتم طبعه على صورة قراطيس. ولم تكن صناعة البردي في مصر سرية، بل كانت من الصناعات الشائعة؛ وبسبب خفة ومتانة قراطيس البردي، كان حملها إلى مسافات بعيدة أمرًا ميسورًا. وانتقلت أوراق البردي وقراطيسه إلى الإغريق، وتوسعوا في استخدامه، كما توسع الرومان بعدهم في ذلك. وظهرت في أسواق روما تجارة البردي؛ حيث تأسست مصانع تستورد من مصر النبات الخام، وتصنع منه حزمًا من الأوراق. وظل البردي مستخدمًا في الكتابة في مصر حتى القرن الحادي عشر الميلادي، برغم دخول الورق بمعناه الحديث إلى مصر في القرن التاسع الميلادي (راجع صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص358، 359).

من القرن الثالث قبل الميلاد، وظلت أوربا تستعمله حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. وكان النساخون يكتبون على صفحات البردي، التي تثبت من كلا طرفيها بعصاة يطوي عليها الورق، فيصبح على شكل لفة يسهل حملها. ثم تطور شكل أوراق البردي، فبدلا من الكتابة بطول الورقة، رأى النساخون أن يقسموا سطح الورقة إلى أنهر متعامدة على عرض الورقة. وبمعنى آخر، تغير وضع الورقة، فأصبح عرضها أكبر من طولها، وقسم هذا العرض عدة أقسام متساوية، فكانت بداية واضحة لفكرة صفحات الكتاب؛ حيث توضع مجموعة من الشرائح الصغيرة بعضها فوق بعض، وتثبت من الوسط بالخيط، وقد تغلف هذه المجموعة بلوحين من الخشب في البداية والنهاية. وهذه صورة قريبة الشبه جدًّا من مفهوم الكتاب الحديث[1].

وفي عهد الدولة الأموية، كان الورق يصنع في مصر من البردي، وكانت لفافات الورق تسمى بالقباطي؛ نسبة إلى القبط، وهي قراطيس الورق، ولقد عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز، على محاربة التبذير والإسراف في جميع مرافق الدولة الإسلامية. وقد شمل هذا كتابة الرسائل؛ فقد كتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم: أما بعد، فقد قرأت كتابك إلى سليمان، تذكر أنه قد كان يجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا، فابتليت بجوابك فيه، فإذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة؛ فإنه لا حاجة للمسلمين في قول أحد ببيت مالهم، والسلام عليك. ولقد كانت رسائل عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما تكون غاية في الإيجاز والبلاغة؛ فقد كتب إلى أحد عماله: (قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فاعدل وإما عزلت)[2].

ولكن العصر الذهبي للبردي بدأ في الزوال، منذ أخذ الجلد ينازعه السوق؛ فقد استخدم الأقدمون جلود الحيوان للكتابة عليه، إلى جانب ورق البردي في أماكن عديدة من العالم القديم. وكانت جلود الضأن والماعز والعجول تدبغ وتجفف ثم يكتب عليها، ولم تكن

---

(1) إبراهيم إمام: فن الإخراج الصحفي (القاهرة – الأنجلو المصرية 1957)، ص21، 22؛ وكذلك أشرف محمود صالح: الطباعة وتيبوغرافية الصحف (القاهرة العربي للنشر والتوزيع 1984)، ص68؛ وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص11، 12.

(2) إبراهيم إمام: أصول الإعلام الإسلامي (القاهرة – دار الفكر العربي 1985)، ص103، 104.

صناعة الرق اختراعًا لدولة معينة مثل البردي، ولكنه كان شائعًا في معظم حضارات العالم القديم، وكان في الحضارات القديمة قاصرًا على الرسائل والوثائق والمذكرات الموجزة ثم في العصور الوسطى صار يستخدم في الكتب[1].

صناعة الورق:

وفي العصور الوسطى حدث للكتاب تحول مهم وأساسي "عندما عرفت أوربا الورق؛ بفضل العرب، الذين تعلموا فن صناعته من الصينيين في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي". يرجع فضل ابتكار ورق الكتابة إلى الصين، عندما اخترع تساي لن (Ts' ai lun) في عام 105 ميلادية الشكل البدائي للورق الذي يستخدم في حياتنا المعاصرة، وكانت طريقته تقوم على طبخ لحاء الشجر وبعض الحشائش والخرق وشباك الصيد القديمة، ثم يفردها ويجففها لتصبح ورقا. ولقد استطاعت الصين أن تحافظ على سر صناعة الورق سبعة قرون كاملة، ولكن عندما أصبحت الحضارة الإسلامية على حدود الصين، منذ أن أصبحت (سمرقند) عاصمة إسلامية في أخريات القرن الأول الهجري، فقد أدركت الصين أنها لابد وأن تبدأ بحرب المسلمين، وفي يوليو 751 ميلادية اجتاحت القوات الصينية الأراضي الإسلامية، فانتصر المسلمون عليهم بقيادة (زياد بن صالح)، وخلفوا وراءهم عددا من الأسرى، من بينهم عدد من صناع الورق الذين عرض عليهم القائد المسلم العتق مقابل الاستمرار في العمل في صناعة الورق بعد نقلهم إلى سمرقند، حيث تم إنشاء مصنع للورق هناك.

ثم وصلت صناعة الورق إلى بغداد عام 793 ميلادية، وتم إنشاء أول مصنع للورق فيها في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (170 - 193هـ = 786 - 809م)، ومن بغداد انتقلت صناعة الورق إلى دمشق في وقت يسير، وفي القرن التاسع الميلادي أصبحت مصر مركزًا صناعيًّا لإنتاج الورق، وكثر إنتاجه لدرجة أن أهلها كانوا يلفون فيه الخضر والفاكهة والتوابل[2].

---

(1) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص359.

(2) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص362، 363؛ وكذلك فن الإخراج الصحفي، مرجع سابق، ص20؛ وأيضًا وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص12، 13؛ وكذلك الطباعة وتبوغرافية الصحف، مرجع سابق، ص68.

ومن طريف ما يروى في هذا المقام أن الخليفة هارون الرشيد، قد لاحظ أن الكتابة على الجلود يسهل محوها، وبذلك يمكن تزييف الوثائق، فأمر بالكتابة على الكاغد وهو الورق؛ إذ إن تزويره أو محو كتابته يكون ظاهرًا، بخلاف الرق أو الجلد. والظاهر أن العرب كانوا يكتبون على الجلود والأوراق في عهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية، وأن الورق لم يستخدم بكثرة إلا منذ أشار الفضل البرمكي بصناعة الكاغد. ويقول القلقشندي: (أجمع رأي الصحابة على كتابة القرآن في الرق؛ لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ، وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس، فأمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد؛ لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق؛ فإنه متى محي فيه فسد، وإن كشط ظهر كشطه، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب ومن بعد[1].

ولقد نقل العرب صناعة الورق إلى أوربا عندما أدخلوه إلى الأندلس (إسبانيا اليوم)، التي كانت ضمن إطار الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الأندلس انتشرت صناعة الورق في العالم بأسره؛ فقد أقيم أول مصنع للورق في عام 1150 ميلادية، عندما أسس العرب في الأندلس ذلك المصنع، وما لبثت إيطاليا أن أنشأت مصانع للورق في عام 1276 ميلادية، وفرنسا في عام 1348 ميلادية، وألمانيا في عام 1390 ميلادية. وأقيم مصنع للورق في إنجلترا في أواخر القرن الخامس عشر، وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية في القرن السابع عشر الميلادي، وفي مصر الحديثة أنشئت أول (فابريقة) لصنع الورق عام 1834 ميلادية، وكانت هذه (الفابريقة) تدار بالمواشي حتى عام 1846؛ حيث استوردت من أوربا آلة بخارية لهذا الغرض. وخلال تلك القرون كانت المواد القديمة هي السائدة في صناعة الورق، حتى جاء القرن التاسع عشر الميلادي بالتكنولوجيا الحديثة، التي سرعان ما أثرت في صناعة الورق[2].

الكتاب المخطوط والعرب:

كذلك اهتم العرب اهتمامًا شديدًا بالكتاب ابتداء من منتصف القرن الثاني للهجرة، حين أخذوا يدونون العلوم الإسلامية والأشعار والأخبار والأمثال على الورق والجلود

(1) أصول الإعلام الإسلامي، مرجع سابق، ص104، 105، نقلا عن كتاب صبح الأعشى، الجزء الثاني، ص486.

(2) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص364، 365، 368؛ وكذلك فن الإخراج الصحفي، مرجع سابق، ص20.

والأنسجة، ويجمعونها في كتب. وتعتبر مكتبة (بيت الحكمة) - التي أمر بإنشائها الخليفة العباسي المأمون (814- 833) - أول مكتبة عربية بالمعنى المفهوم. وكانت عبارة عن مركز للترجمة ونسخ الكتب والدرس والاطلاع والتأليف. وكان للناسخين قاعات خاصة، يجلسون فيها؛ ليقوموا بنقل الكتب، سواء لحسابهم، أو لقاء أجر معين يتقاضونه ممن يكلفهم بنسخ الكتب، وكان (علان الشعوبي) - وهو من أصل فارسي - من نساخ بيت الحكمة، وقام بنسخ الكتب إلى هارون الرشيد والمأمون والبرامكة. ويعتبر (ابن مقلة) - المولود في بغداد سنة 272 هجرية - من أشهر خطاطي العرب، وقد قام بهندسة الحروف العربية، وتقدير مقاساتها، وكتب رسائل وتصانيف في قواعد الخط ورسومه. ومن الخطاطين كذلك (ابن البواب)، الذي برز في القرن الخامس الهجري، وكتب 64 مصحفًا شريفًا بخطه الجميل، وأنشأ رسالة في الكتابة[1].

وفي تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كان كثير من الوراقين يقومون بأعمال نشر الكتب. ولقد جاءت الوراقة[2] تابعة للحضارة الإسلامية، ونتيجة لقوة الدولة واتساع المدنية، وهي ضرب من ضروب الإعلام التدويني لإصدار الكتب ونسخها، والعناية بها وتسويقها، فكان للوراقين نفوذ يضاهي نفوذ دور النشر في هذا الزمان؛ فهم بمثابة المطابع الكبيرة الحديثة الآن. ومهمتهم موزعة بين الانتساخ والتصحيح والتجليد والتذهيب، وكل ما يمت إلى صناعة الكتاب بصلة، وكانت لهم أسواق في بعض الأمصار العظيمة، يؤمها العلماء، وهي بمثابة المراكز العلمية. وكان هؤلاء الوارقون يشترون الورق بالجملة؛ للحصول على أرخص سعر، ويحرصون على اختيار أشهر الكتب لأشهر المؤلفين، والتحكم في أسعار بيع نسخها. ويروي ياقوت الحموي في معجم الأدباء، عن مبالغة الوراقين في تحديد أسعار الكتب

(1) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص13.

(2) **الوراقة:** هي حرفة صناعة الورق ونسخ الكتب والاتجار بها، وانتشرت الوراقة في بعض البلاد العربية، وانتقلت منها إلى أوربا، واشتغل بحرفة الوراقة عدد من أعلام الحفاظ والنحاة والفلاسفة والمؤرخين والأطباء. وفي طليعة هؤلاء: ابن النديم صاحب "الفهرست"، وياقوت الحموي مؤلف "معجم البلدان"، وابن شاكر الكتبي صاحب "فوات الوفيات"، ويشترك معهم في هذه الحرفة المشتغلون بصناعة الأحبار والأقلام وأدوات الكتابة. وكانت للوراقة أسواق مشهورة في سائر أنحاء الدول الإسلامية (انظر الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص1946، 1947).

المنسوخة، أن العالم النحوي الذائع الصيت (الفراء)[1] أملى كتاب المعاني على الوراقين، فحددوا سعر البيع بواقع درهم لكل خمس أوراق .. فلما شكا القراء للفراء ارتفاع الثمن، ناقش الوراقين في تخفيض السعر، فأبوا، فشرع الفراء يملي على الناس كتابًا أوسع وأشمل في المعاني؛ بقصد إلغاء الأول .. عند ذلك هرع الوارقون إلى الفراء يرجونه أن يكف عن ذلك، وتعهدوا ببيع الكتاب بواقع درهم لكل عشر أوراق. وقد اشتهر الوراقون بحسن الخط، مع السرعة في الكتابة، وفي ذلك يروي ابن النديم في ترجمته ليحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي النصراني المتوفى ببغداد سنة 364هـ، أن يحيى كان ينسخ كتب التفسير والكلام، مع أن مذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية، ولكنه اتخذ من الوراقة مهنة له. ويذكر ابن النديم أنه لقي يحيى بن عدي هذا في الوراقين، وقد عاتبه على كثرة نسخه. فقال: من أي شيء تعجب في هذا الوقت من صبري؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتهما إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفس وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل[2].

وفي العصر المملوكي (1250 - 1516م) انتشرت أسواق الكتب في القاهرة، واشتد الإقبال عليها. ومن أشهر هذه الأسواق سوق الوراقين، وسوق الكتبيين، وكانت هذه الأسواق مراكز لنسخ الكتب وتجليدها، وكان في أغلب المكتبات المملوكية عدد من النساخ والمجلدين، يقومون بنسخ الكتب وتجليدها، ونال التجليد والتذهيب في القاهرة - وفي غيرها من المدن العربية الكبيرة - عناية فائقة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وكان بعض الناسخين يشتغلون في فن التجليد أيضًا[3].

---

(1) **الفراء:** هو يحيى بن زياد الديلمي الفراء (757 - 822)، نحوي، ولد في الكوفة، ومات بطريق مكة، ودرس اللغة والقرآن ببلدته وبالبصرة وبغداد على الرواس ويونس بن حبيب والكسائي. استقر ببغداد، وكان يقضي في بلدته أربعين يومًا كل سنة، واتخذه المأمون مؤدبا لولديه، كما ألقى دروسًا عامة في المسجد، وألف كتبًا عديدة في القرآن واللغة والنحو وغيرها (انظر الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص1278؛ وانظر كذلك كتاب الفهرست للنديم، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق، المعروف بالوراق، تحقيق رضا تجدد (طهران شعبان 1391هـ - أكتوبر 1971)، ص73.

(2) أصول الإعلام الإسلامي، مرجع سابق، ص107؛ وكذلك صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص240؛ وكذلك كتاب الفهرست للنديم، مرجع سابق، ص322.

(3) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص14.

ويرتبط الكتاب بالتراث ارتباطًا وثيقًا؛ لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث. وفي عالمنا العربي والإسلامي الرباط أوثق؛ فالتراث المرتبط بالكتاب العربي على وجه الخصوص يطلق على كنوز المعرفة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية في عصور ازدهارها. ويذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي لم يكن في خزانة كتبه كتاب إلا وله ثلاث نسخ. ويذكر المقريزي أنه كان في خزانة العزيز بالله ثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد؛ وأنه كان في خزانة كتب الفاطميين مائتان وألف نسخة من تاريخ الطبري. وانظر إلى عدد مصاحف القرآن الكريم المخطوطة والمحفوظة بمكتبات الدنيا العامة والخاصة، ثم انظر إلى عدد النسخ المخطوطة من صحيحي البخاري ومسلم، والمشتغلون بعلم المخطوطات يعلمون أن هناك كتبًا ذوات عدد، كثرت نسخها كثرة ظاهرة، بحيث لا تكاد تخلو منها مكتبة من مكتبات الدنيا. ويقول الدكتور حسين مؤنس إن أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العرب. ويقدر أعداد المخطوطات العربية الموجودة في مكتبات العالم العربي والإسلامي وخارجه بنحو مليونين من المخطوطات، بينما في المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان، فلن نجد أكثر من عشرة آلاف مخطوط .. إن تراثنا الحضاري العربي الإسلامي قد تناول كل نواحي العلم والمعرفة التي عرفت في العصور الماضية، ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمرًا إلا وطرقوه، وخاضوا في تفاصيله[1].

وقد ترتب على مهنة الوراقة ظهور المكتبات المتنوعة، مثل مكتبات المساجد، ومكتبات المدارس، ومكتبات القصور، وكانت مكتبات المساجد مع المكتبات الخاصة أول المكتبات نشوءا في الإسلام، ويبدو أن العادة جرت من أقدم عصور الإسلام أن يودع في المساجد عدد من نسخ القرآن الكريم وبعض الكتب الدينية النافعة؛ كوقف لفائدة المطالعين والمصلين. وكانت مكتبات الحرم المكي والحرم النبوي تضم مجموعات ضخمة من الكتب، وقد أنشأ العزيز بالله – الذي تولى الخلافة سنة 365هـ – مكتبة عرفت باسم = خزانة الكتب)، وسار على هذا النهج الحاكم بأمر الله الفاطمي، فأنشأ سنة 395هـ (دار الحكمة). ومن المكتبات

(1) محمود محمد الطناحي: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي (القاهرة – مكتبة الخانجي – الطبعة الأولى 1405هـ – 1984م)، ص25؛ وكذلك صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص39، 40؛ وكذلك جريدة الشرق الأوسط بتاريخ 1983/1/30.

الملحقة بالمساجد مكتبة مسجد طليطلة، التي احتفظت بمكانتها حتى بعد سقوطها في يد الإسبان عام 1085؛ حيث وجد فيها هؤلاء الغزاة مكتبة غنية حافلة بالكتب، وقد بلغت شهرة هذه المكتبة - من حيث هي مركز ثقافة - أقصى البلاد النصرانية في الشمال، وكان الخلفاء الأمويون يحتفظون بمكتبات في قصورهم[1].

الكتاب المخطوط في أوربا:

وفي أوربا، احتكرت الأديرة - وغيرها من المؤسسات الدينية - الثقافة المكتوبة وإنتاج الكتب، وذلك خلال القرون السبعة التي انقضت على سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثاني عشر. وكانت الأديرة الكبيرة في بريطانيا تحتوي على مكتبات مهمة، ولكن عدد الكتب فيها لم يكن كبيرًا؛ لأن نسخ الكتاب الواحد وتجليده كان يستغرق وقتًا طويلا، ويتكلف المجلد الواحد نحو عشرين شلنا آنذاك، أي ما يعادل مائتي جنيه إسترليني حاليًا، وكانت الكتب والمجلدات تحفظ فوق رفوف خشبية، وتربط بسلاسل حديدية تغلق بأقفال؛ خوفًا عليها من السرقة، وظلت هذه السلاسل مربوطة بالكتب حتى عام 1745 ميلادية، ولقد أثر ظهور الورق في أوربا - بعد أن نقل العرب صناعته إليها كما سبق ذكره - على صناعة الكتاب، وأصبح ينتج بكميات أوفر، وأدى ذلك - أيضًا - إلى إنتاج الكتاب الرخيص السعر، إلى جانب الكتاب الفاخر، الذي كان يصنع من الرقوق، ويباع بأغلى الأسعار، ولقد سار كلاهما جنبًا إلى جنب حتى القرن الخامس عشر؛ ذلك أن الورق في بدايته لمن يكن من الجودة بحيث يقضي على الرقوق نهائيًّا[2].

ومنذ بداية القرن الثالث عشر، لم تعد الأديرة هي المراكز الوحيدة لإنتاج الكتب، واقتصر إنتاجها على ما تحتاجه هي من كتب، وانتقلت مراكز الحياة الفكرية إلى الجامعات، وأخذ العلماء والأساتذة والطلبة ينظمون مع الناسخين المتخصصين تجارة نشطة للكتب؛ فقد كان الطلبة يحتاجون إلى بعض الكتب الأساسية، إلى جانب المذكرات التي يدونونها أثناء المحاضرات، فيكلفون الناسخين بنقلها لهم؛ ولذلك تجمع عدد كبير من هؤلاء الحرفيين حول الجامعات، وشيئًا فشيئًا تكون في كل مركز جامعي طائفة من محترفي نسخ الكتب. وما

(1) أصول الإعلام الإسلامي، مرجع سابق ص108؛ وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص13.
(2) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص14، 15.

لبثوا أن صاروا جزءًا لا يتجزأ من الجامعة، وتم إعفاؤهم - بناء على ذلك - من أداء بعض الضرائب، وخضعوا قضائيًّا للسلطات الجامعية، وأصبحوا تحت رقابتها وإشرافها؛ ونظرًا لندرة الكتب المخطوطة كان يعاد عرضها للبيع، فتنتقل من يد إلى يد خلال عدة أجيال من الطلاب والأساتذة، كما كانت الجامعات تحرص على تحقيق المؤلفات التي لا غنى عنها للأساتذة والطلاب؛ حتى لا تقع فيها أخطاء تغير معناها[1].

أما عن تنظيم مهنة بيع الكتب خارج محيط الجامعات، فالمعلومات عنها قليلة، غير أن الكتبيين المعتمدين من الجامعة كانوا يستطيعون الاتجار بالكتب مع غير الجامعيين، وفي هذه الحالة لم تكن تطبق عليهم اللوائح الجامعية. ومنذ نهاية القرن الثاني عشر في فرنسا، وأوائل القرن الرابع عشر في إنجلترا، وجدت مشاغل لناسخي الكتب، تعمل من أجل إنتاج نصوص باللغة العامية لحساب بعض الكتبيين، وقد ازداد الطلب على الكتب نتيجة لزيادة عدد العملاء، وأدى هذا النشاط إلى جعل الناسخين المشتغلين في صناعة الكتاب، يعملون على تنظيم إنتاجهم، وزيادة حجمه وسرعته ما أمكنهم ذلك، وأصبحت توجد مشاغل للنسخ، وأخرى للزخرفة، وثالثة للخطاطين المتخصصين في كتابة عناوين الفصول[2].

الكتاب المطبوع في أوربا:

وعلى وجه العموم، فإن عمل النساخ مهد الطريق أمام الطابعين، ويجدر بنا - قبل الحديث عن الكتاب المطبوع - أن نتحدث عن اختراع المطبعة نفسها؛ باعتبارها الأداة التي ساعدت على نشر الكتاب، وجعلته في متناول الجميع، بعد أن كان مقصورًا على قلة من الناس.

يرى بعض المؤرخين أن الصينيين عرفوا الطباعة بالألواح الخشبية[3] قبل الميلاد بحوالي ثلاثمائة عام. ويرى البعض الآخر، أن هذه الطباعة الخشبية انتشرت في الغرب عقب عودة

---

(1) انظر المرجع السابق نفسه، ص15، 17.

(2) المرجع السابق نفس، ص21.

(3) كان الطابع إذا أراد أن يطبع كتابًا أحضر لوحات خشبية، وسوى سطحها ونعمه، وكتب عليها النصوص المراد طبعها كتابة معكوسة أو مقلوبة، وكان أحد الفنانين يحفر أجزاء الخشب الخالية من الكتابة، فتظهر الحروف بارزة على اللوحة، فتحبر وتوضع عليها الورقة التي يراد طبعها، وتمرر أسطوانة على الورقة فتظهر الكتابة على وجهها الملاصق للوحة.

الرحالة الإيطالي (ماركو بولو) [1] من الصين في سنة 1272م. ويرى آخرون أن الملاحين الهولنديين هم الذين جلبوا تلك الطريقة من الطباعة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وأول كتب طبعت بهذه الطريقة في أوربا كانت عام 1431 ميلادية. غير أن طريقة الطباعة هذه لم تكن عملية؛ إذ كان لابد من توفير عدد من الألواح الخشبية يساوي عدد صفحات الكتاب المراد طبعه. وكانت الكتابة المحفورة غير منسقة، وأخطاء الحفار كانت تصحح بصعوبة، والألواح الخشبية تبلى بعد استعمالها مرات قليلة، وتحتاج العملية مساحة واسعة في المطبعة تحتلها تلك الألواح الكثيرة، إلى غير ذلك من المعوقات الكثيرة، ولكن إذا قارنا بين الطباعة بالألواح الخشبية وبين النسخ باليد، وجدنا أن الإنسانية قطعت شوطًا بعيدًا في مضمار النسخ الآلي. ومهما يكن من أمر، فإن الطباعة بالألواح الخشبية كانت مرحلة انتقال بين الكتب المنسوخة باليد والكتب المطبوعة بالحروف المعدنية المنفصلة؛ حيث دعت عيوب الطباعة بالألواح الخشبية إلى التفكير في صنع حروف معدنية منفصلة، تجمع بها الكلمات في تناسق تام، فإذا ما تم طبع نصوص كتاب من الكتب بها، فكت بعضها من بعض؛ ليُعاد طبع كتب أخرى بها[2].

ولقد جرت المحاولات الأولى لاختراع الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة في تكتم شديد؛ حتى لا يستطيع الناس التمييز بين ما ينتج عن طريق هذا الفن الجديد، وبين ما يكتبه النساخون؛ فالطباعة في أول أمرها لم تكن إلا محاولة ميكانيكية لتقليد عمل الناسخين، وبيع الكتب المطبوعة على أنها منسوخة باليد، فيجنون من وراء ذلك أرباحًا كبيرة؛ حيث كان الناس يفضلون الكتب المنسوخة على الكتب المطبوعة، ويعتبرونها أثمن هدية في ذلك العصر، ولقد ادعت سبع عشرة مدينة أنها اخترعت الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة، ولكن ثلاثًا منها فقط استطاعت أن تدعم زعمها بالأسانيد، وهي: "ستراسبورج" في فرنسا،

(1) ولد ماركو بولو في مدينة البندقية، وقد عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا، وعاد إلى أوربا عن طريق سومطرة.

(2) خليل صابات: قصة الطباعة (القاهرة – مكتبة الهلال – الطبعة الأولى 1957)، ص10، 11؛ وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق ص23؛ وجدير بالذكر أنه قد ظهرت كتب مطبوعة بالألواح الخشبية بعد اختراع الحروف المتفرقة، بل ظلت تسير معها فترة من الزمن. وقد اندثرت الطباعة بالألواح الخشبية في حوالي 1490 ميلادية، وإلى جانب الطباعة الخشبية كانت هناك الطباعة الحجرية، التي تعتمد على الكتابة أو الرسم على حجر أملس بمادة زيتية تستقطب الحبر، وعند وضع الورق على الحجر والضغط عليه تطبع الكتابة أو الرسم. وهذا النوع من الطباعة اخترعه (الواسنفلد) في عام 1796م.

و "ماينز" في ألمانيا، و"هارلم" في هولندا. إلا أن معظم مؤرخي الطباعة يتفقون على أن "يوهان جوتنبرج Johann Gutenberg"" هو أول من فكر في اختراع الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة. وبدأ محاولاته في مدينة "ستراسبورج" حوالي سنة 1436 ميلادية، وكانت وقتها تتبع ألمانيا، وهي الآن عاصمة إقليم الإلزاس في فرنسا، وواصلها في مدينة "ماينز" في ألمانيا حوالي سنة 1445 ميلادية، وما لبثت الطباعة أن انتشرت بعد ذلك في أوربا[1]. حيث انتقلت إلى إيطاليا في عام 1465، وفرنسا عام 1470، وبلجيكا عام 1472، وهولندا عام 1473، وأوربا الوسطى عام 1473، وسويسرا عام 1474، وإسبانيا عام 1474، وبريطانيا عام 1476، وإسكنديناوا عام 1490، والبرتغال عام 1495، والدنمارك والسويد في أواخر القرن الخامس عشر، وأيسلندا في عام 1531، وروسيا عام 1553، والهند عام 1563، والمكسيك عام 1566، وبولندا عام 1578، وبيرو عام 1585، والنرويج عام 1644، والصين عام 1776، ومانيلا عام 1818، وهاواي عام 1822، وإيران عام 1825، ولم ينته القرن التاسع عشر الميلادي إلا وكانت الطباعة قد دخلت في جميع أنحاء العالم. وأمام الإقبال الشديد على المطبوع، اخترعت الطابعة الدوارة (الروتاتيف Rotative)، وآلات جمع الحروف المعروفة باللينوتيب (Linotype)، والمونوتيب (Monotype)، والإنترتيب (Intertype)، وأجهزة الجمع التصويري (Photo-setting)، وآلة الجمع البرقي (Teletypestter).

كما اخترع الحفر على الزنك، والطباعة الغائرة (Rotogravure)، والطباعة الملساء (Lithography)، وحل الجمع الفوتوغرافي أو التصويري على الأفلام محل جمع الحروف المعدنية المسبوكة بالرصاص.

وفيما يتعلق بالكتاب المطبوع في أوربا عقب اختراع الطباعة، فإنه في أول عهده لم يكن يختلف من حيث الشكل عن الكتاب المنسوخ؛ فقد كان الطبع تقليدًا للنسخ. وكانت الحروف الطباعية نفسها تقليدًا للحروف المكتوبة باليد، بل إن الحروف الأولى لأبواب الكتاب وفصوله كانت تترك للخطاطين والمزخرفين؛ لكي يكتبوها بالحبر الأحمر. وكان

(1) يرجع سبب انتشار الطباعة في أوربا إلى كارثة حلت بمدينة "ماينز"؛ فقد شجر خلاف بين أميرين على كرسي الأسقفية، انتهى بحرق المدينة في أكتوبر 1462 ميلادية، فتعطلت مطبعة فوست وشويفر، وترك عمالها مدينة (ماينز)، وتفرقوا في بلاد أوربا؛ حيث اشتغلوا بالطباعة فيها لحسابهم الخاص (انظر قصة الطباعة، مرجع سابق، ص34 وما بعدها).

يصعب على القارئ – في بداية اختراع المطبعة بالحروف المعدنية المنفصلة – أن يفرق بين الكتاب المطبوع والكتاب المنسوخ. ولكن شيئًا فشيئًا أخذ الكتاب المطبوع يبتعد عن نموذجه الأصلي (الكتاب المنسوخ)، وأصبحت له ميزاته الخاصة به.

وقد ظلت المطابع تنضد حروف الكتب بطريقة الجمع اليدوي، منذ أن اكتشف جوتنبرج الطبع بواسطة الحروف المعدنية المتفرقة، إلى أن اخترع (أوتومار ميرجينثار Ottmar Mergenthaler)[1]، في مدينة بلتيمور بولاية ماريلاند بالولايات المتحدة الأمريكية، آلة "اللينوتيب"، التي تنضد الحروف وتصبها في سطور، وما تلاها من آلات أخرى للجمع الآلي – كما سبق إيضاحه – بدأت المطابع تنضد حروف الكتب بتلك الطرق الحديثة. وكانت الكتب قديمًا تجلد تجليدًا فاخرًا يحفظها أطول مدة ممكنة. وكان الناشرون يعنون على الخصوص بتجليد الكتب كثيرة التداول والاستعمال. وعلى الرغم من انتشار الكتاب في أوربا بعد اختراع المطبعة، فقد ظل حتى بداية القرن الثامن عشر مقصورًا على النخبة من رجال العلم والثراء. وكانت الكتب الفاخرة تجلد بالقطيفة والحرير والجوخ المذهب، أما الكتب العادية فكانت تجلد بأنواع الجلد المختلفة. وكان المجلدون يعملون بالقرب من الكتبيين، وكان كبار الناشرين يملكون مشاغل لتجليد الكتب[2].

وفى مجال تجليد الكتاب في الوقت الحاضر، فقد اخترعت آلات لخياطة الملازم أو لصقها ولتطبيق الأفرخ، وآلات لصنع الأغلفة العادية والأغلفة المقواة. وابتكرت حروف مطبعية جديدة تتفق والتقدم الذي حققه الكتاب. وتأثر الفنانون بالمدارس الفنية المختلفة في أسلوب تنظيم الصفحات وترتيب الحروف والعناوين، فأضفوا على الصفحة المطبوعة جمالا ورونقًا يجتذبان القارئ، ويغريانه على القراءة، وازدهرت صناعة الكتاب، وارتفع إنتاجه ارتفاعًا

---

(1) **أوتومار ميرجينثار:** من أصل ألماني، ولد في 3 مايو 1854 بقرية هاتشل من أعمال فرتمبرج الألمانية، وكان في صدر حياته يعمل صبيًّا لأحد صناع الساعات حتى عام 1872، حيث هاجر إلى أمريكا، والتحق بالعمل بمصنع للآلات الكهربائية في مدينة واشنطن، وقام بعمل تجارب عديدة أوصلته إلى اختراعه هذا، وقد توفي عام 1899 (انظر: فن الإخراج الصحفي، مرجع سابق، ص137)، (وكذلك قصة الطباعة، مرجع سابق، ص129-132).

(2) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص25 و29؛ وكذلك قصة الطباعة، مرجع سابق ص129.

ظاهرًا، وامتلأت المكتبات العامة والخاصة بالكتب، وانتشرت المكتبات الشعبية في كل مكان في العالم، وأصبح بالإمكان تبادل الكتب بين المكتبات العالمية واستعارتها. ومن المتوقع وقد وصلت صناعة الكتاب في العالم إلى ما وصلت إليه، أن يسير فن إنتاج الكتاب في طريق التطور والتجديد[1].

الكتاب العربي المطبوع:

وبالنسبة للكتاب العربي المطبوع، فإن ظروف صناعته في العالم العربي، تختلف عنها في أوربا؛ لأن المطبعة في العالم العربي نشأت في أحضان الحكومات والمراكز الدينية، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا مطبعة واحدة في مدينة حلب بسوريا، أنشأها رجل يدعى "بلفنطي" من جزيرة سردينيا الإيطالية، وطبعت ديوان ابن الفارض سنة 1841. وكانت المطابع العربية لا تطبع إلا الكتب المضمون رواجها، ولكن قبل أن نتكلم عن الكتاب العربي المطبوع، يجدر بنا أن نتحدث عن نشأة الطباعة في الدول العربية وتطورها[2].

إن المدخل لمعرفة دخول الطباعة إلى الدول العربية، هو معرفة دخولها تركيا؛ لأن الدول العربية كانت ولايات تابعة للخلافة العثمانية قبل موجات الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين .. ولقد شهدت "الآستانة" أول مطبعة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، بعد اختراع الطباعة بنحو أربعين سنة. حيث أنشأ رجل يهودي يدعى "إسحق جرسون" مطبعة عبرية؛ لينشر بها كتب ديانته. أما المطبعة العربية فقد عرفتها تركيا بفضل مسعى "سعيد أفندي ابن محمد أفندي)، سفير تركيا في باريس، حيث اتصل سعيد بشخص اسمه إبراهيم متفرقة، وسعى الاثنان لدى السلطان العثماني، الذي أصدر فرمان الموافقة بعد أن أفتى شيخ الإسلام عبد الله أفندي في سنة 1716م = 1129هـ، بجواز استخدام الطباعة في نشر كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والهيئة وسائر الفنون.

(1) المرجع الأول السابق، ص42.

(2) المرجع السابق نفسه، ص31.

وأول كتاب أخرجته المطبعة كان ترجمة "قاموس وانقولي" في عام 1728م = 1141هـ إلى اللغة التركية. وازدهرت الطباعة في تركيا في عصر أحمد فارس بن يوسف الشدياق[1]، الذي أسس مطبعة الجوائب وزودها بالآلات العصرية للطباعة، وأصدر عدة كتب من التراث العربي القديم وصحيفة الجوائب[2].

وفيما يتعلق بالدول العربية، فقد كانت لبنان أول بلد عربي يعرف الطباعة في عام 1610 ميلادية، عندما جلب دير قزحيا مطبعة وحروفًا سريانية من روما. وقد اندثرت تلك المطبعة، وظلت لبنان بدون مطبعة حوالي مائة عام. وكانت مطبعة دير ماريو حنا الصايغ في لبنان، أول مطبعة عربية تم تأسيسها عام 1733 ميلادية. ودخلت الطباعة مدينة حلب في سوريا عام 1706 ميلادية، فقد كان ظهور الطباعة المبكر في لبنان إيذانًا بظهورها في سوريا؛ فالبلدان متجاوران، بل هما في القديم بلد واحد، ولكن حركة النشر في مطابع سوريا كانت عربية إسلامية، ولم تصطبغ بالصبغة المسيحية كما حدث في بداية الطباعة في لبنان. ودخلت الطباعة إلى مصر مع الحملة الفرنسية عام 1798؛ حيث جلب الفرنسيون معهم مطابع بحروف عربية وفرنسية ويونانية. وقامت هذه المطابع بطبع المنشورات والأوامر واللوائح والقوانين والكتب وصحيفتين. ولما جلا الفرنسيون عن مصر عام 1801 حملوا معهم مطابعهم، وظلت مصر بدون مطابع حتى عام 1819م = 1235هـ في عهد محمد علي، عندما وضع حجر أساس مطبعة بولاق بالقاهرة، وتم افتتاحها رسميًّا في 4 نوفمبر 1821م = 8 صفر 1237هـ، وعرف العراق المطبعة عام 1830م = 1246هـ، وعرفت فلسطين الطباعة أيضًا عام 1830، كذلك عرفت الجزائر الطباعة في عام 1830، ويقال إن الفرنسيين نقلوا

---

(1) **الشدياق:** عالم باللغة والآداب، ولد في بعشقوت بلبنان عام 1804م = 1219هـ لأبوين مسيحيين، سمياه فارسًا. وتعلم في المدارس المارونية بلبنان، ثم رحل إلى مصر، وتلقى الأدب على علمائها، واشتغل في جريدة الوقائع المصرية، ورحل إلى مالطة، وعمل بها مدرسًا للغة العربية. وتنقل في أوربا وخاصة باريس ولندن، ثم سافر إلى تونس، واعتنق الدين الإسلامي، وتسمى أحمد فارس، فدعي إلى الآستانة؛ حيث أسس مطبعة الجوائب، وأصدر صحيفتها عام 1277هـ، واستمرت في الصدور 23 سنة، وطبع بمطبعته هذه كثيرًا من كتبه وكتب غيره، وتوفي بالآستانة عام 1887م = 1304هـ، وله عدة مؤلفات في الأدب واللغة والنحو (انظر الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص1078؛ وكذلك مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مرجع سابق هامش، ص28).

(2) صناعة نشر الكتاب، مرجع سابق، ص383 و384؛ وكذلك قصة الطباعة، مرجع سابق، ص75 و76؛ وكذلك تاريخ الطباعة في الشرق العربي، مرجع سابق، ص23 وما بعدها.

إليها المطابع التي كانت الحملة الفرنسية قد استخدمتها في مصر قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة. ودخلت الطباعة إلى المغرب عام 1864م = 1281هـ، وكانت مطبعة حجرية. ودخلت الطباعة اليمن عام 1877، وعرف الحجاز الطباعة عام 1882م = 1300هـ، وأول مطبعة أنشئت في الأردن هي مطبعة خليل نصر، وكانت قد تأسست في حيفا عام 1909 ثم نقلت عام 1922 إلى عمان. وكانت البحرين أول بلد في الخليج العربي ينشئ مطبعة في عام 1938، باسم مطبعة البحرين، وتبعتها الكويت، حيث أنشئت فيها أول مطبعة عام 1947، وسميت مطبعة المعارف، وكانت عبارة عن طابعة صغيرة مستعملة جلبت من العراق. وأول مطبعة عرفتها قطر كانت في عام 1956، واسمها مطابع العروبة، ثم دخلت الطباعة بعد ذلك إلى دولة الإمارات العربية وسلطنة عمان[1].

كان ذلك عن نشأة الطباعة وتطورها في الدول العربية، وبطبيعة الحال فإن صناعة الكتاب المطبوع في العالم العربي المعاصر، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بدخول المطبعة إلى الدول العربية المختلفة .. وواضح مما سبق أن الطباعة العربية قد اصطبغت في نشأتها الأولى بصبغة مسيحية؛ حيث نشأت المطابع في ظل الأديرة اللبنانية، وكان عملها قاصرًا على طبع الكتب الدينية المسيحية. كذلك فإن مطبعة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 قد جاءت مع الحملة، ثم رحلت معها عام 1801، ولم يكن لها في مجال طبع الكتاب أثر يذكر، ولم يظهر الكتاب بوجهه العربي إلا في مطبعة بولاق بمصر، التي أنشأها محمد علي والي مصر، وخرج منها أول كتاب باللغة العربية عام 1823م = 1238هـ، وهو قاموس (إيتلياني وعربي). وبدأ بذلك تاريخ النشر العربي المعاصر للكتاب، وصدرت الكتب باللغة العربية بعد ذلك عنها تباعًا. وكانت هذه المطبعة حكومية، وما تنشره من كتب إما على نفقة الحكومة – وأكثرها كتب مترجمة لخدمة أغراض الجيش، أو لخدمة ديوان المدارس الذي تنتسب المطبعة إليه – وإما على نفقة ملتزم طبع ونشر يدفع التكاليف للمطبعة. وهذه أول صورة من صور النشر الأهلي للكتاب في مصر، بل نواة الناشر العربي. وكان معظم هؤلاء الملتزمين من الوراقين

(1) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص384 و385؛ وكذلك قصة الطباعة، مرجع سابق، ص76 – 79 و85؛ وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص 31 – 40؛ وكذلك مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مرجع سابق، 159 و192، راجع تفاصيل أكثر عن تطور الطباعة في العالم العربي في كتاب الطباعة في الشرق العربي، مرجع سابق، كل دولة في موضعها من الكتاب.

الذين يتاجرون بالمطبوعات والمخطوطات في سوق الكتب بجوار الأزهر وفي رحابه بالقاهرة؛ بهدف تحقيق النفع المادي والسعي وراء الكسب. ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان عدد من المصريين قد امتهنوا مهنة نشر الكتاب[1]، وبعضهم كان صاحب مكتبة، تحول إلى التزام النشر، وبعضهم كان من عمال الطباعة الطموحين الذين أسسوا مطابع بدائية مستقلة، وبعضهم من المؤلفين أو المحققين الذين أرادوا أن يخوضوا بأنفسهم تجربة نشر إنتاجهم من الكتب، وهكذا كان الحال في معظم أقاليم الوطن العربي بصور قليلة الاختلاف والتفاوت[2].

ولقد كان الكتاب العربي في بداية الأمر، يشبه – من حيث الشكل – الكتاب المخطوط إلى حد كبير، فوجه الورقة الأولى مخصص لعنوان الكتاب واسم المؤلف واسم المطبعة التي طبعته وسنة الطبع. وكانت هذه الصفحة تجمع بالبنط نفسه الذي كانت تجمع به حروف الكتاب كله. وشيئًا فشيئًا أخذ الطابعون يجمعون العنوان ببنط أكبر إلى أن ترك أمر العنوان إلى الخطاطين يكتبونه بخطهم الجميل، ثم يحفر على الزنك ويصنع له نمط أو كليشيه، كما هي الحال اليوم. وكانت عناوين الكتب لا تخلو من السجع. وكانت صفحات الكتاب كلها – بما في ذلك صفحة العنوان – تحاط بإطار يتكون من خطين أحدهما أسمك من الآخر. وكانت المطبعة تتفنن في الصفحة الأخيرة، مقلدة بذلك الكتب المخطوطة. فتختم الكتاب بحمد الله تعالى على إتمام هذا العمل، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. ويتبع ذلك اسم المطبعة التي طبعت الكتاب والسنة الهجرية التي طبع خلالها. وكان يؤخذ على الكتب الأولى كثرة

---

(1) كان اعتماد هؤلاء على نشر كتب التراث القديمة وكتب (التعيين) التى يحتاج إليها طلاب الأزهر. ومن أقدم مطابعهم المطبعة الميمنية التى أسسها أحمد البابي الحلبي عام 1859، ثم انقسمت فيما بعد إلى شركتين منفصلتين. ومطبعة المعارف التى أنشأها إبراهيم المويلحي، والمطبعة الأهلية القبطية عام 1870 وفي الفجالة بالقاهرة أنشأ جورجي زيدان ونجيب مترى مطبعة التأليف سنة 1890، ثم انفصلا في العام التالي = 1891، واستقل الأول بالمطبعة وأطلق عليها اسم الهلال، وهي دار الهلال الموجودة حاليًا. وأنشأ الثاني مبطعة المعارف ومكتبتها والتي تغير اسمها في عام 1944 إلى "دار المعارف"، وانتقلت من الفجالة إلى كورنيش النيل في عام 1950، وفرضت عليها الحراسة في عام 1968 وضمت إلى القطاع العام، راجع تشاندلرجر نيس، نشر الكتاب فن، ترجمة وتقديم حبيب سلامة، القاهرة، دار النهضة العربية، 1965، ص5 – 6.

(2) صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص247، 248؛ وكذلك نشر الكتاب فن، مرجع سابق، ص3–6.

أخطائها المطبعية؛ لقلة عدد المصححين الأكفاء الذين كان البحث عنهم يستغرق وقتًا طويلا. وكانت معظم الكتب التي تخرج من مطابع مصر والشام في الدين والأدب والطب والفنون العسكرية والهندسية وصباغة الحرير؛ مما يفي بحاجة الناس في ذلك العهد. وكانت الكتب الفاخرة ترسل إلى أوربا بعد تجليدها وتذهيبها. وقد أرسلت مطبعة "بولاق" المصرية كتبها إلى معرض باريس، الذي أقيم عام 1867، فنالت الميدالية الفضية؛ إذ كان طبعها على جانب من الإتقان، وحروفها واضحة جميلة، وورقها من النوع الجيد[1].

ويمكن أن يقال إن صناعة الكتاب في العالم العربي، تجاوبت مع انتشار التعليم والتقدم العمراني والاقتصادي، فإذا حدث وخبت شعلة هذا التقدم، قل الإقبال على الكتاب وكسدت تجارته. ومهما يكن الأمر فإن هذه الصناعة لم تكن في البلاد العربية مصدرًا أكيدًا للكسب، على الأقل حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، حين عم الرخاء جانبًا من دول العالم العربي، وانتشر التعليم بين طبقات الشعب فيه. ثم شهد العالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين تجمع أضخم قدر من الأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية وازدهار الصحافة. وكل ذلك نشط من حركة التأليف وزيادة عدد القراء، فانتشرت المطابع، وتضاعف عدد مكتبات البيع، التي سرعان ما كانت تتحول إلى التزام النشر، بالإضافة إلى البيع والاتجار بالكتب[2].

أهمية الكتاب ومميزاته :[3]

سبق أن أوضحنا أن الكتاب بصفة عامة، هو أول وسيلة إعلام مكتوبة، وأقدم أنواع المواد المنشورة في تاريخ البشرية، وهو الوعاء الرئيس للتراث الإنساني، وينطبق عليه ما

(1) وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص40 – 41.

(2) المرجع السابق، ص41؛ وكذلك نشر الكتاب فن، مرجع سابق، ص6.

(3) مراجع هذه الجزئية هي: إبراهيم محمد سرسيق، أصول الإعلام الحديث وتطبيقاته، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي – بدون تاريخ، ص19–22. وكذلك محمد موفق الغلاييني، وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، جدة، دار المنار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1405هـ - 1985م، ص156 و182 – 186. وكذلك صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص18–24 و50–53. وكذلك زكي رمضان محمد القرمان، الإعلام الإسلامي في العهد الأموي (بحث بالآلة الكاتبة، تقدم به لنيل درجة الماجستير من قسم الإعلام بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية)، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام 1402هـ، ص86 – 89.

ينطبق على مثيله من وسائل الإعلام المقروءة أو المكتوبة. ويتمتع مثلها بميزات عديدة، ومن بينها ما يلي:

أولا: من النعم الإلهية الكبرى التي حباها الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الإسلامية واختصها بها، "القرآن الكريم"، وهو كلام رب العالمين، الذي انتقل إلينا بالسطور والصدور جيلا بعد جيل، منذ تلاه رسول الله ﷺ، وبلغه كما أنزل عليه. وهذا الكتاب المقدس يستمد المسلمون منه عقيدتهم ومنهاج حياتهم، وعليه يلتقون إذا اختلفت آراؤهم ونزعاتهم. وقد حث رسول الله ﷺ على تعلم القرآن وتعليمه، فقال فيما رواه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" [أخرجه الترمذي]. ومنزلة المسلم ترتفع بمقدار ما يعلم من القرآن الكريم.

والمتتبع للتاريخ الإسلامي – عبر مراحله المختلفة – يلاحظ مدى تأثير القرآن الكريم في المسلمين وتأثرهم به. ويمكن القول إنه ما من أمة كان لها مثل ما كان للأمة المسلمة من الإفادة من كتاب ربها. فالقرآن الكريم شد الأمة الإسلامية إلى دينها، بل حفظه لها، حتى أن اللغة العربية التي نزل بها اكتسبت قوة وديمومة بفضله، وخاصة في البلاد التي سيطر عليها الاستعمار فترات طويلة؛ إذ كان في مخطط الاستعمار إزالة اللغة العربية من الوجود، مثلما حصل في الجزائر خاصة، والمغرب العربي عامة.

ثانيًا: إلى جانب القرآن الكريم، كان للسنة النبوية أثر مهم أيضًا في الحفاظ على وحدة المسلمين الفكرية والروحية والسلوكية. فقد بدئ بتدوين السنة رسميًّا منذ بداية القرن الثاني الهجري، بإشارة من الخليفة عمر بن عبد العزيز. وقد قام العلماء فيما بعد بجهود كبيرة لمعرفة الحديث المقبول من الحديث المردود، وتنقية الحديث مما شابه نتيجة بعض الظروف والأسباب، حتى أن علومًا عدة أنشئت لخدمة الحديث النبوي الشريف، سميت بعلوم الحديث. وهكذا ظهرت كتب الصحاح، كالجامع الصحيح للبخاري وصحيح مسلم، وكتب السنن: كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وغيرها، وكثرت عناية المسلمين بها حفظًا وتعلمًا، إلى يومنا هذا؛ لأن السنة النبوية تعتبر المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم.

ثالثًا: وعن هذين المصدرين العظيمين (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)، تفرعت علوم أفردت بالتأليف والتصنيف، وقام بهذا علماء برعوا في هذه العلوم، فانتشرت كتب التفسير، وعلوم القرآن، والفقه وأصول الفقه، وعلوم الحديث، ومصطلحه، والتوحيد وغيرها. ودونت المذاهب الفقهية الأربعة في مؤلفات خاصة. وقد أسهمت هذه الكتب جميعًا في نشر العلم الشرعي، وبيانه للمسلمين. فوعى الناس أحكام دينهم، وكان النقاش مستمرًّا بين علمائهم في هذه الأمور، وهذا ما ساعد على ازدياد المؤلفات التي تعتبر مرجعًا أساسيًّا للمسلمين حتى اليوم؛ لمعرفة آراء العلماء سلفًا وخلفًا.

رابعًا: وإذا انتقلنا من ذلك العصر إلى عصرنا هذا - وبالتحديد أوائل القرن العشرين - نرى كيف أسهم الكتاب الإسلامي في الحفاظ على الفكر الإسلامي، والدفاع عن الحضارة الإسلامية، التي بدأ أعداء الإسلام في الداخل والخارج بالتشكيك فيها. فقد بدأ الكتاب الإسلامي في الظهور بشكل بسيط، ثم ما لبث أن كثر وانتشر، فأعاد للمسلمين ثقتهم بإسلامهم، وبقدرته على قيادة البشرية، بعد أن توهم كثير من المسلمين - بتأثير من دعايات المغرضين - بأن الإسلام قد أدى دوره في حقبة من الزمن وانتهى، وأن العودة إليه في هذا العصر تعتبر رجعية وتأخرًا.

خامسًا: تمثل الترجمة جانبًا أساسيًّا في مجال الكتاب؛ باعتباره وسيلة اتصال حضاري. ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغة العربية، وأن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية[1]، في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وكانت المحاولة الجادة لتعريب الكتب وجعلها وسيلة إعلامية مطروحة للتداول بين الناس، قد تمت على يد الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية، ولم تكن غايته من وراء تعريب الكتب احتكار العلم لنفسه، بل إن هدفه كان إعلاميًّا في المقام الأول؛ لإيمانه بأن العلم للتداول بين الناس، ولتحقيق منفعتهم وعزتهم وكرامتهم. كما عمل الخلفاء الأمويون على تشجيع

(1) في هذا الوقت الذى كان فيه المسلمون خلال العهد الأموي، يشجعون الحركة العلمية ويحمون الحرية الفكرية مفسحين المجال لغير المسلمين لمشاركتهم في الإنتاج الفكري، والمساهمة في حركة الترجمة وتعريب الكتب - كانت الكنسية المسيحية تفرض على الأوربيين إرهابًا فكريًّا، وراح رجالها يحتكرون لأنفسهم حق تفسير الكتاب المقدس عندهم، وعمدوا إلى إحراق معارضيهم أحياء؛ في سبيل الإبقاء على تسلطهم على الناس؛ الأمر الذى جعل الظلام الفكري يخيم على تلك الأنحاء، وسميت تلك العصور عندهم بعصور الظلام (الإعلام الإسلامي في العهد الأموي، مرجع سابق، ص91).

المسلمين وغيرهم على القيام بنقل كتب الأقدمين إلى اللغة العربية؛ عملا منهم على نشر العلم والاستفادة من علوم الآخرين النافعة. ولقد بلغت حركة ترجمة الكتب إلى اللغة العربية شأنًا كبيرًا في الدولة العباسية، وبخاصة في عصر المأمون، الذي اهتم بالترجمة اهتمامًا خاصًّا، وأنفق عليها بسخاء.

ثم جاء الدور على أوربا في نهضتها الحديثة؛ لتترجم كتب العرب إلى اللاتينية، ولتترجم الكتب اليونانية القديمة من النص العربي. ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات. فقد دخلت العلوم أوربا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك بإنشاء مكتب للمترجمين في طليطلة، بدءًا منذ سنة 1130 ميلادية، بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية. ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة خلال القرون: 12 و 13 و14 الميلادية. ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء المسلمين باللغة العربية كالرازي وابن سينا، وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية، بل نقل إليها أيضًا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى اللغة العربية، مثل كتب جالينوس، وأبقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإقليدس، وأرشميدس، وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من الكتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب. والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى اللغة العربية، وبفضل هذه الترجمة اطلعت أوربا على كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني.

ومما يؤسف له أنه في عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب - في أغلبها اتجاهًا ذا تدفق واحد، من الحضارة الأوربية المعاصرة إلى العالم الثالث. وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوربية. ولعله من المفيد أن نذكر أن حركة الترجمة للكتاب الإسلامي في الوقت الحاضر، قد أصبحت فائدتها تعم أغلب المسلمين على اختلاف لغاتهم. ومن أمثلة ذلك كتب المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والتي ترجم أغلبها من اللغة الأوردية إلى اللغة العربية، وكتب سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي تترجم إلى اللغة الإنجليزية والأوردية والفارسية وغيرها. وهذه الحركة ساعدت على نقل الفكر الإسلامي للشعوب المسلمة، التي هي في أمس الحاجة إلى مزيد من التلاحم والتفاهم.

سادسًا: يجمع الكتاب بين فضائل وسيلة الاتصال الجماهيري؛ بحكم الأعداد المطبوعة منه، وبين فضائل الاتصال المباشر؛ لأن القارئ لابد وأن يخلو للكتاب، وأن يتهيأ للقراءة. والكتاب في دائرة الاتصال الحضاري يحظى بموقع فريد، وتقف بعض الكتب كأنها علامات بارزة في نقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل، ومن حضارة إلى أخرى، كما سبق أن رأينا في البند السابق على سبيل المثال.

ويوضح تقرير لليونسكو[1]، أن الكتب تعتبر وسيلة إعلام جماهيرية أولى.

فبرغم تطور المنافسة بعد ظهور أشكال جديدة للاتصال بالجماهير، ظل عدد القراء في تزايد مستمر. فمن عام 1955 إلى عام 1976 زاد إنتاج الكتب في العالم زيادة مطردة إلى أن تضاعف، هذا إذا أخذنا في الاعتبار عناوين الكتب الصادرة في كل سنة. أما إذا اعتبرنا عدد النسخ، فإن الرقم يصبح ثلاثة أضعاف ما كان من قبل. وفي منتصف العقد الثامن من القرن العشرين أصبح يوجد في الأسواق أكثر من خمسمائة وتسعين ألف كتاب، طبعت منها حوالي ثمانية مليارات من النسخ. وكان من أهم أسباب هذا التزايد هو التغيير الجذري الذي طرأ بعد الحرب العالمية الثانية على الوسائل الفنية لإنتاج الكتب وتوزيعها. ولكن مع ذلك يوجد في هذا المجال – كما في الميادين الإعلامية الأخرى – فروق أساسية وعميقة بين الدول المتقدمة والدول النامية. ففى عام 1976 – على سبيل المثال – بلغ عدد الكتب المطبوعة خمسمائة وواحد وتسعين ألف كتاب في مختلف أنحاء العالم، منها أربعمائة وواحد وتسعين ألف كتاب للبلاد المتقدمة، ومائة ألف كتاب فقط للبلاد النامية.

سابعًا: الكتاب بصفة عامة يعكس الثقافة التي ينتمي إليها، ولكن ذلك لا يقف عائقًا أمام انتشار الكتاب من دائرة الإعلام المحلي أو الإقليمي إلى دائرة الإعلام الوطني، ثم إلى دائرة الإعلام الدولي، بل إن المذاق الخاص للكتاب باعتباره انعكاسًا لثقافة ينتمي إليها، وانعكاسًا لبيئة نبت فيها، وخرج منها، يعد عاملا مهمًّا في انتشاره دوليًّا، إذا تحققت له شروط النجاح.

وتحاول الدول – من جانب آخر – أن تجعل من كتبها وسيلة يمكن الاعتماد عليها في مجال الإعلام الدولي. وأدركت الجهات المسئولة عن الإعلام – في وقت مبكر – أهمية الكتاب؛ باعتباره وسيلة مهمة للإعلام الدولي، أو الإعلام الخارجي. ولقد كان من بين أول

(1) هذا التقرير أعدته لجنة مشكلة لبحث مشكلات الإعلام العالمي في نطاق منظمة اليونسكو عام 1977م.

المشروعات الإعلامية التي نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية - بالتعاون مع مؤسسات غير رسمية - إصدار كتاب في عام 1943 حول تاريخ الولايات المتحدة، وأشرف على إصداره مجموعة من الباحثين في جامعة (برنستون)، وتم نشره في العالم العربي. كما قامت وزارة الخارجية الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بتزويد العديد من المكتبات العربية العامة بمجموعات من الكتب الأمريكية. وكان ذلك في نطاق النشاط الإعلامي المباشر وغير المباشر. وقد استقبلت المكتبات العربية الهبات الأمريكية من الكتب بالترحاب، وبخاصة أنها كانت تفتقر إلى الكتب الغربية التي انقطعت بسبب ظروف الحرب.

ثامنًا: دفع الاقتصاد الحديث صناعة نشر الكتاب، إلى الانتقال من الطور الحرفي إلى طور الإنتاج على نطاق واسع. وقد أدى هذا التطور بكثير من ناشري الكتاب إلى الاندماج في شركات إعلامية أو مالية؛ مما أدى إلى نتائج سياسية مهمة على الصعيد الدولي، وكانت صناعة الكتب أول وسيلة إعلام جماهيرية صالحة للتصدير. وساعد على ذلك نشاط الناشرين الأوربيين في إيجاد الأسواق، ثم تأسيس الفروع في المستعمرات القديمة.

تاسعًا: يعتبر الكتاب وسيلة إعلامية واسعة الانتشار، وتأثيرها بعيد المدى، وهو قابل للنقل والتحرك من مكان إلى مكان، والتداول بين مختلف الطبقات. ويمكن تبادل الاستفادة مما فيه، والانتفاع بمضمونه الإعلامي أكثر من مرة، وعلى يد أكثر من شخص. والكتاب من هذه الناحية مفيد في تثبيت الرسالة الإعلامية، عن طريق التكرار، وعن طريق التعدد. وهو قادر على التأثير والإقناع من زاوية أخرى؛ لأنه يتيح للقارئ قدرًا كبيرًا من التفكير الإقناعي أو النقدي للمادة المكتوبة. فالقارئ يستطيع أن يتأنى ويفكر ويتأمل، ويعود فيقرأ ويتأنى ويفكر، ويتأمل مرارًا وتكرارًا، ويدور حوار صامت بين الطرفين؛ مما يعطي للمادة المقروءة قوة تأثيرية كبرى، ينتج عنها أنها تلح على القارئ بفكرة معينة تستولي عليه، وتكون النتيجة أن تتعمق الاتجاهات الرئيسة للمادة الاتصالية في ذهنه، ويصبح منفعلا بها أكثر من كونه متلقيًا لها؛ وذلك لأن الكلمة المكتوبة ذات سحر قوي على النفوس، إذا أمكن إعدادها إعدادًا جيدًا، وتوفر لها من أساليب التأثير اللفظي والمعنوي ما يجعلها تتسلل إلى القارئ بشحنة عاطفية، تجعل القارئ أسيرًا لها، ثم داعيًا لمضمونها.

عاشرًا: يتميز الكتاب بأن قارئه يقوم بنفسه بتحصيل فحواه، فهو لا يحتاج إلى وسيط لنقل ما فيه من معلومات إلى ذهن القارئ، بل يكفي أن يعرف المتلقي القراءة أو يجيدها؛ ليستطيع

الإحاطة بفحوى الرسالة التي يحملها الكتاب، ويقوم على إدراك معانيها، دون حاجة إلى استيعاب المهارات القرائية الأخرى؛ كسرعة القراءة، أو القدرة على اختزان المقروء، أو الإجادة في تلخيص ما يقرأ ... إلخ، وهكذا يستطيع القارئ نفسه – دون أي وسيط آخر – أن يحصل مضمون الكتاب بنفسه ولنفسه؛ ومن ثم يتوفر لديه الدافع الشخصي ليحدد لنفسه موقفًا من الكتاب دون وصاية أخرى مفروضة عليه في هذا الصدد.

حادي عشر: تؤثر المواد المقروءة – الكتاب من بينها – في نفس المتلقى، من ناحية حفزه على تأكيد ذاته، وشحذ قواه العقلية في فهم ما يقرأ وفك رموزه، وقيامه بمهمة المعلم لنفسه. ومن المعلوم – سيكولوجيًّا – أن قيام المتلقي بمهمة التلقين والتعليم لنفسه يزيد ما يتلقاه عمقًا وثباتًا وقوة، سواء في محاولة تحليله للرموز القرائية، أو مجهوده الذي يبذله في فهم المعميات والعبارات الغامضة؛ مما يعطيه إيجابية في الفهم، وتأكيدًا للذات، وقدرة عقلية على الإقناع والاقتناع.

ثاني عشر: الكتب وسيلة إعلام ذات أثر بالغ في حياتنا جميعًا؛ فهي دليلنا على الماضي، وتساعدنا لفهم أنفسنا، وفهم العالم الذي نعيش فيه، وتمدنا بالعون لنرسم خطانا للمستقبل بطريقة أفضل. كما أنها أداة تعليمنا الرئيسة، ووسيلة إمتاع الناس في كافة أعمارهم؛ فالكتب تنقل الكثير من تراث الماضي، ولا تستمر حياة الأمة التعليمية والمهنية والاجتماعية بغير الكتب. فالقضاة لابد لهم من فحص مجلدات النظم والقوانين بصورة مستمرة، والأطباء يرجعون دائمًا إلى خزائن الحكمة الطبية والعلاج، وموظفو الحكومة يرجعون إلى اللوائح والنظم المختلفة، والمدرسون والطلبة يجدون في الكتب الدراسية المقروءة المعرفة الشاملة بالتاريخ، والعلم، والآداب، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، التي تجمعت وتراكمت على مر العصور. والرجال والنساء يقرءون؛ حتى يظلون على صلة قوية بما يجري في العالم السريع المتغير من حولهم، وليجدوا استجمامًا، وليكتسبوا معرفة في كل أوجه النشاط الإنساني.

ثالث عشر: يتميز الكتاب بأنه يتيح للقارئ فرصة التحليق بخياله فيما بين السطور، فيفهم أكثر مما يقرأ، ويتخيل أكثر مما يفهم؛ وذلك لأن المادة المكتوبة لا تحصره في نقطة محددة، ولا تحاصره في إطار مغلق، بل تشع في نفسه إشعاعات متموجة، تجعله يراوح ما بين الفهم حينًا، والفكر حينًا، والتخيل حينًا والابتكار في بعض الأحيان.

فالكتاب أقدر على الاحتفاظ بما فيه من معلومات أطول مدة ممكنة، وهو بهذا يتيح الفرصة للقارئ لكي يرجع إليه أكثر من مرة؛ للتثبت من بعض النقاط التي يود أن يركز عليها، كما أن القارئ يستطيع أن يعرض نفسه على الكتاب في الوقت الذي يناسبه ويتفق مع ظروفه.

رابع عشر: وأخيرًا يمكن الإشارة إلى أقوال الذين يرون أن الكتاب سيبقى على شكله المعاصر إلى ما بعد عام ألفين[1]. فمنهم من يؤكد استمرارية الكتاب اعتمادًا على أن السنوات العشرين الأخيرة لم تسجل هبوطًا في نسبة المطبوع من الكتب، ولا في نسبة توزيعها .. ويذهب البعض إلى أن القراءة جهد إرادي حر، يهيئ السعادة للقارئ، وحضارة الكلمة المطبوعة حضارة قرون طويلة، تؤكد أن هذا الجهد يتضمن قيمة أساسية .. ويقول آخرون لقد تحولت الكتب من الآن إلى شرائط الميكروفيلم، ولكن هذا التحول هدفه الحفظ وليس القراءة، أي أن الميكروفيلم مرحلة تأتي بعد صدور الكتاب، أو هي مرحلة نتيجة لنشر الكتاب، ثم لماذا لا ينظر إلى الكتاب بتفاؤل، على اعتبار أن التعليم في تطور مستمر، وأن عدد المتعلمين في تزايد، وبالتالي فإن عدد القراء يتزايد، وهذا يدعو إلى توفير الإمكانات، وبالفعل فلقد اخترعت ماكينة طباعة تطبع وتقص وتجلد سبعة آلاف نسخة من كتب يصل عدد صفحاتها إلى ثلاثمائة صفحة في ساعة واحدة.

سلبيات الكتاب[2]:

كانت تلك بعض مميزات الكتاب، ولكن على الجانب الآخر يوجد للكتاب أيضًا عدد من السلبيات التي تعوق انتشاره، ومن بين تلك السلبيات ما يلي:

---

(1) هذه الأقوال عرضت خلال الندوة التى نظمتها مجلة "لير" الفرنسية في أول عام 1982 عن الكتاب في عام ألفين، واشترك فيها عدد من النقاد والأدباء والناشرين. انظر فتحي العشري، مقال بعنوان: ندوة عالمية عن الكتاب عام 2000، بجريدة الأهرام المصرية في 1982/4/2م.

(2) مراجع هذه الجزئية هي: صناعة الكتاب ونشره، مرجع سابق، ص24 و53. وكذلك نشر الكتاب فن، مرجع سابق، ص32 و 33. وكذلك وسائل الاتصال، مرجع سابق، ص43 – 45. وكذلك يحيى محمود ساعاتي: حركة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية، الرياض، النادي الأدبي، 1399هـ/1979م، ص187 و189.

أولا: أن الكتاب في شكله المعاصر لن يبقى لآماد طويلة؛ وذلك لأنه قلت قيمته، إما بسبب الرقابة السياسية، أو بانصراف القراء عنه إلى متع أيسر وأسرع تتمثل في الأجهزة السمعية والبصرية.

ثانيًا: يرى أمين عام اليونسكو أن البلاد النامية تعاني من ندرة الكتب، فهي لا تنتج إلا واحدًا على خمسة من الكتب الصادرة في العالم، وأن الدول المتقدمة تعاني من كيفية توصيل الكتاب إلى القارئ. فقد تبين من دراسة أجريت أن نسبة عالية من مواطني الدول المتقدمة لا يقرءون الكتب. وإذا كان العالم العربي – على سبيل المثال باعتباره من الدول النامية – يتكون من حوالي 125 مليون نسمة، فإنه لا ينتج أكثر من نسبة 1٪ من الإنتاج العالمي للكتاب سنويًّا، بينما يشكل عدد السكان فيه نسبة 3,5٪ من عدد سكان العالم. أما نصيب كل مليون عربي من إنتاج الكتاب فهي 40 كتابًا، في حين أن المعدل العالمي يصل إلى 150 كتابًا لكل مليون نسمة.

ثالثًا: الكتاب لا يتعرض له قطاعات كبيرة من الناس، وفي مقدمتهم الأميين وعددهم كبير، وخاصة في الدول النامية، وسبب ذلك واضح، وهو أن الأمي لا يعرف القراءة، فلا يستطيع الاطلاع على الكتب. وكذلك لا تتعرض له قطاعات من ذوي الدخل المحدود جدًّا، حتى ولو كانوا ممن يجيدون القراءة والكتابة؛ لعدم قدرتهم على شراء الكتب. ولذلك فإن الغالبية المحرومة من هذه النعمة تلجأ إلى الوسائل الأخرى – كالإذاعة والتليفزيون – لتعويض ذلك النقص.

رابعًا: قارئ الكتاب – بصفة عامة – يمتاز بالبحث عن المضمون الجاد، فضلا عن إجادته للقراءة بطبيعة الحال، وغالبًا ما يكون واسع الثقافة،؛ لأن الكتاب يمتاز عادة بالعمق والدراسة بين وسائل الإعلام المختلفة. وهؤلاء بطبيعة الحال عددهم قليل .. ومن الغريب أن الثراء ليس سببًا في إقبال الناس على شراء الكتب، فقد تزهد المجتمعات المترفة في الكتاب، وتلجأ إلى وسائل أكثر ترفيهًا.

وقد تكون هناك سمات خاصة للثقافة الوطنية في مجتمع من المجتمعات، تجعل لنوعيات معينة من الكتب وضعًا أكثر انتشارًا وتوزيعًا. فالكتاب الإسلامي – مثلا – يلقى رواجًا كبيرًا في المملكة العربية السعودية أكثر من غيره. ومن الشائع أن العراقيين من أكثر العرب قراءة للشعر، والمصريين من أكثر العرب قراءة للقصة الطويلة، وهكذا.

خامسًا: من الأسباب التي تعترض سبيل الكتاب، وخاصة الكتاب العربي، وتحد من انتشاره، قوانين تبادل النقل ووسائل النقل وقوانين التصدير والاستيراد والضرائب الجمركية والبلدية وغيرها. وقد عانت السوق المحلية في أغلب دول العالم خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، نقصًا في أنواع الورق وارتفاعًا في سعره، أخذ يشتد مع تقدم السنوات، وأصبحت تجارة الورق مشكلة عسيرة، وقد نتج عن غلاء سعر الورق وندرته، أن تأثر الإنتاج الوطني للكتاب، فصار عدد المطبوع من كل كتاب لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسخة، وارتفع سعر الكتاب تبعًا لقلة المطبوع منه؛ نتيجة لارتفاع تكاليف إنتاجه، وبذلك تعذر شراء الكتاب على قطاعات كبيرة من المجتمع.

سادسًا: منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ المؤلفون – وخاصة في مصر – يجأرون بالشكوى من ظاهرة استشرت في العالم العربي، ولم تجد لها حلا حتى الآن، وهي ظاهرة تزوير الكتب وإعادة طبعها دون استئذان مؤلفيها وناشريها الحقيقيين. وقد تخصص مزورون في دولة عربية في هذه العملية دون وازع من ضمير أو من قانون يضع حدًّا لسرقتهم.

سابعًا: يرى البعض أن القضية الحقيقية في أزمة الكتاب – خاصة الكتاب العربي – هي في المناخ والتوزيع؛ حيث تفتقر الدول النامية – ومنها العالم العربي بطبيعة الحال – إلى قاعدة ثابتة لتوزيع الكتاب، ويحفظ للكتاب كرامته، ولدور النشر كيانها، وتقدم للقارئ الكتب بثمن مقبول ومعقول.

ثامنًا: أن ارتفاع أسعار الورق، وأجور الطابعين في الآونة الأخيرة، أخذ يهدد الكتاب، حيث ارتفعت أسعار الكتب إلى درجة يخشى معها أن تصبح فوق متناول سواد الشعب، وتعاود سيرتها الأولى، حين كان الكتاب وقفًا على من يستطيع أن يدفع بسخاء.

تاسعًا: افتقار أغلب دور نشر الكتاب – وخاصة في الدول النامية – إلى الجهاز المنظم، واعتمادها على أصحابها، وأكثرهم من غير المتخصصين في مهنة نشر الكتاب. وكذلك استمرار الاعتماد على الجهات الحكومية كمنفذ رئيس لتصريف الكتاب، وفي ذلك نوع من قتل العمل الثقافي. فغالبًا ما يذهب الكتاب إلى مستودع الوزارة، أو الإدارة المعنية ويوزع بطريقة غير مفيدة. ونعرف أن الجهات الحكومية تشتري الكتب بدافع من التشجيع، ولكن ذلك ليس هو الطريق الصواب؛ إذ يفترض أن الكتاب وضع ليقرأ، ومن الضروري أن يصل إلى يد القارئ ذاته، يشتريه باختياره وبنقوده.

عاشرًا: عدم الاهتمام والعناية بالدعاية والإعلان عن الكتب من جانب دور النشر، مع أن ذلك من الواجبات والضروريات التي يجب أن تؤديها؛ لتعرف القارئ بما صدر من كتب جديدة وكيفية الحصول عليها، وكل ذلك يؤدي إلى قلة توزيع الكتاب وركود سوقه.

حادي عشر: عدم الاهتمام في دول العالم الثالث بالشكل الخارجي للكتاب، والأغلفة وتصميماتها، والتي تعد في عالم النشر الحديث قضية ضرورية؛ نظرًا للتقدم التقني الكبير الذي أصاب الكتاب عالميًّا، بحيث لم يعد الموضوع والمؤلف المنطلق الوحيد لترويج الكتاب وانتشاره، بل أصبح الشكل يمثل عنصرًا مهمًّا في هذا المضمار.

ثاني عشر: عدم الاهتمام ببيانات النشر، التي تعد ضرورية وملزمة؛ إذ نجد كتابًا بدون تاريخ نشر، وآخر لا يحمل اسم الجهة الناشرة أو حتى المطبعة التي طبع فيها الكتاب. إلى جانب سوء وضع البيانات إن وجدت، فنجد مكان النشر على الغلاف الخارجي والتاريخ على الصفحة الأخيرة من الكتاب، أو وضع جميع البيانات على الغلاف الخارجي من الخلف؛ مما يؤدي إلى ضياع هذه البيانات عند نزع غلاف الكتاب للتجليد أو عند تمزقه وتلفه. بالإضافة إلى عدم التقيد بوضع سعر محدد على الغلاف حتى لا يكون الكتاب عرضة للمغالاة عند بيعه من قبل باعة الكتب.

ثالث عشر: كذلك فإن سوء توزيع الكتاب يعتبر سببًا رئيسًا في الحد من انتشاره، وخاصة في دول العالم الثالث، وينتج عن سوء التوزيع، وعدم وجود نظام إيداع قانوني، استحالة وضع ببليوجرافيا وطنية شاملة في تلك الدول، تيسر الأمر على الباحثين والدارسين.

وهكذا، سرنا مع الكتاب التقليدي في رحلته الطويلة، عبر قرون عديدة، باعتباره أول وسيلة إعلامية مكتوبة خرجت إلى الوجود، منذ أقدم عصور التاريخ قبل اختراع الورق والطباعة بزمن طويل .. وبالرغم من أن الكتاب قد تعرض منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى منافسة السينما الصامتة، ثم الناطقة، إلا أن هذه المنافسة لم تؤثر فيه لا كمًّا ولا كيفًا .. وجاء الراديو بعد ذلك ليدخل كل بيت، وأيقن الناس أن عصر الكتاب قد انتهى، ولكنه خرج أيضًا من هذه المعركة سليمًا، وأقوى مما كان عليه .. وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت منافسة التليفزيون الأبيض والأسود ثم الملون، وصمد الكتاب كذلك لهذا المنافس العتيد، كما صمد للأشرطة المسجلة، وللذاكرة الإلكترونية وغيرها .. وعليه فإن الكتاب لن يختفي إلا إذا اختفت من الوجود دعامته الأولى، وهي الورق، أو إذا ارتفع سعره إلى الحد الذي يجعل شراءه مستحيلا .. ويبقى بعد ذلك أن نسير أيضًا في رحلة مع "تطور الصحافة التقليدية وأهميتها ومميزاتها وسلبياتها" .. وهذا هو موضوع الفصل التالي إن شاء الله.